

تلخيص

شرح متن

(المنهاج من سير أمت النبوة)

بَابُ فِي السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ وَأَهَمِّيَّةِ
مُؤَافَقَتِهَا فِي الْإِصْلَاحِ وَإِقَامَةِ
الدِّينِ وَسِيَاسَةِ النَّاسِ وَدَعْوَتِهِمْ

برنامج
البناء المنهجية
5

تنبيه



المادة المعتمدة في الاختبار:
الشرح المرئي للكتاب
هذا المخلص لا يغني عن مراجعة
الشرح.

بَابُ فِي السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ وَأَهَمِّيَّةِ مُوَافَقَتِهَا فِي الْإِصْلَاحِ وَإِقَامَةِ الدِّينِ وَسِيَّاسَةِ النَّاسِ وَدَعْوَتِهِمْ

الفوائد:

1- اشتركت الآيات الثلاث الأولى من هذا الباب في الحديث عن سنة الله في «إهلاك المكذبين والظالمين»، وقد ذُكر فيها صنفان من الناس، وهم: «المنافقون»، و«المكذبون والمعرضون».

الآيات

الآية الأولى: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا}

الفوائد:

1- هذه الآية تتحدث عن المنافقين؛ وقد جاءت في سورة الأحزاب بعد قول الله تعالى: (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ٦٠) وتدل هذه الآية على أن المنافقين إذا لم ينتهوا عما يقومون به من الأذى؛ فإن الله سيسلّط نبيه ﷺ عليهم.

2- اختلف المفسرون على قولين في عدم تحقق ما وقع في هذه الآية:

- أنهم رجعوا إلى كتمانهم وإسرارهم وانتهوا، وهذا أرجح من الثاني، وهو قول قتادة - رحمه الله -
- أن إخلاف الوعيد جائز من باب الكرم الإلهي.

قال ابن كثير في تفسير الآية: «أَي: هَذِهِ سُنَّتُهُ فِي الْمُنَافِقِينَ إِذَا تَمَرَّدُوا عَلَى نِفَاقِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَلَمْ يَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ؛ أَنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ يُسَلِّطُونَ عَلَيْهِمْ وَيَقْهَرُونَهُمْ»

3- اختلف المفسرون في تفسير قوله تعالى: (الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ) على قولين:

- أَي: من أعداء النبي ﷺ الذين سلّطه الله عليهم، وانتصر عليهم في بدر، وسلّطه على يهود بني قريظة، فكما فعل ذلك في هؤلاء؛ فإن من سنة الله أن يسلّطه على هؤلاء المنافقين.

• أي: من الأمم السابقة؛ فسنة الله أنه يسلط أولياءه على أعدائه في مثل هذه الأحوال.

الآية الثانية: **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا}**

الفوائد:

1- هذه الآية جاءت في سورة فاطر في سياق الحديث عن المستكبرين والماكرين السوء، فالله يُخبر نبيه أن سنته فيمن جاءت البيّنات والحجج ورفضها وكذب أن ينزل بهم بأسه ويهلكهم، فهل ينظر هؤلاء إلا أن ينزل بهم كما نزل بالأولين؟

الآية الثالثة: **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ}**

الفوائد:

1- هذه الآية تدلّ على أن من سنة الله: أن الظالمين لا ينفعهم إيمانهم حين يرون البأس.

ويمكن تقسيم إهلاك الله للظالمين إلى نوعين:

الأول: إهلاك بخرق العادة في السنن الكونية؛ كما حصل في إهلاك قوم نوح عليه السلام.

الثاني: إهلاك الظالمين بتسليط المؤمنين عليهم.

فالنوع الأول من الآيات الظاهرة، والثاني من الآيات الخفية التي تأتي ضمن سياق التدافع بين الحق والباطل

والتوبة لا تقبل من الظالمين حين ينزل بهم البأس؛ إذا كان البأس من النوع الأول، أما إذا كان من النوع الثاني؛ فإن التوبة تُقبل، وسبب ذلك: أنّ الأوّل لا تُترك معه فرصة لإحسان العمل؛ لأنه إهلاك تامّ، والسنن الإلهية التي ذكر الله في كتابه أنّها ستقع لنبيّه محمد ﷺ فيما يتعلق بإهلاك الظالمين إنما هي من النوع الثاني.

الآية الرابعة: **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ}**

الفوائد:

1- قال أبو جعفر الطبري: يعني بقوله تعالى ذكره: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ)، مضت وسلفت مني فيمن كان قبلكم يا معشر أصحاب محمد وأهل الإيمان به، من نحو قوم عاد وثمود وقوم هود وقوم لوط، وغيرهم من سُلّاف الأمم قبلكم سنن، يعني: مثلات سير بها فيهم وفيمن كذّبوا به من أنبيائهم الذين أرسلوا إليهم، بامهالي أهل الكذب بهم، واستدراجي إياهم، حتى بلغ الكتاب فيهم أجله الذي أجّله لإدالة أنبيائهم وأهل الإيمان بهم عليهم، ثم أحلت بهم عقوبتي، وأنزلت بساحتهم نِقَمي، فتركتهم لمن بعدهم أمثالا وعبرا = (فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ)، يقول: فسيروا - أيها الظانّون، أنّ إدالتي مَنْ أدلت من أهل الشرك يوم أُحد على محمد وأصحابه، لغير استدراج مني لمن أشرك بي، وكفر برسلي، وخالف أمري - في ديار الأمم الذين كانوا قبلكم، ممن كان على مثل الذي عليه

هؤلاء المكذبون برسولي والجاحدون وحدانيتي، فانظروا كيف كان عاقبة تكذيبهم أنبيائي، وما الذي آل إليه غِبُّ خلافهم أمري، وإنكارهم وحدانيتي، فتعلموا عند ذلك أنّ إدالتي من أدلت من المشركين على نبيي محمد وأصحابه بأحد، إنما هي استدراج وإمهال ليلبغ الكتاب أجله الذي أجلت لهم، ثم إما أن يؤول حالهم إلى مثل ما آل إليه حال الأمم الذين سلفوا قبلهم: من تعجيل العقوبة عليهم، أو ينيبوا إلى طاعتي واتباع رسولي»

الآية الخامسة: **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ}**

الفوائد:

1- هذه الآية جاءت في سورة القمر بعد أن ذكر الله إهلاك قوم نوح، وعاد، وشمود، وقوم لوط، ثم فرعون، ثم جاءت الآية: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ)، وكان ذلك يوم بدر، فهؤلاء الكفار ليسوا بخير من أولئك ولن ينجو من سنن الله - تعالى -.

الآية السادسة: **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ}**

الآية السابعة: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ}

الآية الثامنة: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ يَكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ}

الفوائد:

1- الله تعالى يؤكد لنا في كتابه أن ما أجراه على الأمم السابقة ليس مختصاً بهم، وإنما هو متعلق بالله - تعالى -، وبقانونه الذي يُجريه على الخلق، وقد أكد الله في مواضع من كتابه أن قانونه هذا لن يتبدل، وكان الله بهذه الآيات يثبت نبيه ﷺ والمؤمنين.

قال ابن عاشور في تفسير الآية: «وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ كَلِمَاتُ اللَّهِ مَا كَتَبَهُ فِي أَرْزَلِهِ وَقَدَرَهُ مِنْ سُنَنِهِ فِي الْأُمَمِ، أَيْ أَنْ إِهْلَاكَ الْمُكَذِّبِينَ يَقَعُ كَمَا وَقَعَ إِهْلَاكُ مَنْ قَبْلَهُمْ»

الآية التاسعة: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ}

الأحاديث

الحديث الأول: عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) [هود: 102]، أخرجه البخاري (4686)، ومسلم (2583). ليملي للظالم: أي: يمهل.

الحديث الثاني: : وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - فِي قِصَّةِ هِرَقْلَ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حِينَ قَالَ هِرَقْلُ لَهُ: وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّكُمْ قَاتَلْتُمُوهُ، فَتَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ سِبْجَالًا [1]، يَنَالُ مِنْكُمْ، وَتَنَالُونَ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ» [2] أخرجه البخاري (4553)، ومسلم (1773). سجالًا: أي: نوبة لنا، ونوبة له.

الفوائد:

- 1- هذا النص من هرقل لا شك أن عليه أنوارًا من ميراث الأنبياء السابقين، وفيه ذكر لسنتين:
 - سنة الابتلاء، وهذا يذكرنا بقول ورقة بن نوفل لنبينا ﷺ في بداية بعثته حين قال له: «لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي»
 - سنة النصر للمؤمنين، وأن العاقبة لهم.

الحديث الثالث: عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: شَكَّوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُخْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى خَضِرَمَوْتُ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوْ الذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» صحيح البخاري (3612). وَقَدْ كَانَتْ سِيرَةُ النَّبِيِّ ﷺ كُلُّهَا مُوَافِقَةً لِلْسُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ فِي الدَّعْوَةِ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ، وَمُدَافَعَةِ الْبَاطِلِ، وَالْإِبْتِلَاءِ، وَالصَّبْرِ عَلَى أَذَى الْكُفَّارِ، ثُمَّ جِهَادِهِمْ، ثُمَّ إِهْلَاكِهِمْ، حَتَّى جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. (متوسد بردة له): أي: اتخذ البردة وسادة له، والبردة: كساء مخطط، (يمشط بأمشاط الحديد): أي: يسرح جلده بأمشاط الحديد.

الفوائد:

- 1- هذا الحديث يدلّ على أن سنة الابتلاء ماضية على المؤمنين في هذه الأمة وفي الأمم قبلها.
- 2- التعرف على أخبار الماضين وما مرّ بهم من الشدائد من أعظم ما يعين الإنسان على التصبر.
- 3- العجيب أن هذا التبشير جاء في ذروة وقت الأزمة واشتدادها على المسلمين.